عندما تتحقق الأحلام

بقلم
عبد المعطى المسيرى

انتبه الدكتور شاكر من نومه اثر حلم مزعج زال عنه النوم ، وأورثه القلق والسهاد .. رأى أنه بينما كان يتنزه على شاطىء النهر سمع صيحة استغاثة ، فلما التفت نحو مصدر الصوت ، ألفى « سميرة » ـ الفتاة المريضة بقلبها والتى يتولى علاجها ـ مشرفة على الغرق ، ورغم أنه لم يكن الوحيد ـ فثمة اشخاص كانوا أقرب الى مكانها منه ، فقد توجهت اليه بتوسلاتها تستصرخه وتستجديه المعونة مرددة : « اغثنى يا دكتور ، انقذنى يا دكتور » .. ولكنه لم يسارع الى نجدتها كما ينبغى بل طفق يخلع ملابسه ببطء وقلة اكتراث ، وعندما هم بالنزول الى الماء كان كل شىء قد انتهى » .

وقد مكث الدكتور شاكر بضع ساعات مبلبل الفكر ، مضطرب الخاطر ، كلما حاول أن ينحى عنه هواجس منامه ، أو كلما أثقل جفنه النعاس ، أيقظه طيف « سميرة » وهى تعلو وتهبط فى الماء صائحة : « اغثنى يادكتور ، أنقذنى يا دكتور » .

وفى الصباح شرع يرتدى ملابسه وما تزال الرؤيا ماثلة فى مخيلته ، تلح عليه من كل جانب ، وتتمثل له فى كل شىء .. فسميرة فى المرآة تناضل الماء ، وفى أرجاء الحجرة تستصرخ وتستغيث.

وركب سيارته قاصدا العيادة ، ولكنه عندما بلغ مفترق الطرق ، انحرف عن طريق عيادته ، واتجه صوب منزل

المريضة ، وما كاد يدنو منه حتى سمع الصياح والعويل .. !!

لم يسنح فى فكره أن ما هجست به أحلامه ستصدمه به اليقظة ، ولم يكن يخطر بباله ان غرق سميرة فى المنـــم يعني ربما في الحقيقة ، فحـاول أن يتجنب مواجهة اهلها ، ولكنه لم يلبث أن وجـــد نفســـه بينهم وقد شرقوا بدموعهم ، وتلظى الهم بين ضلوعهم ، فهم بين منقبض صدر ، ولهيف قلب، فواساهم ما استطاع الى ذلك سبيلا، وانكفأ راجعا بعد أن رأى تفسير حلمه، فقد أنباه احدهم بأن « سميرة » كانت وهى فى سكرات الموت تند عنها هـذه الكلمات : « اغثنى يا دكتور ، انقذنى يا دكتور » .

* * *

ودارت عجلة الزمن .. واضـحى الدكتور شاكر انسانا جديدا ، فقد اثار حلم سميرة ما كمن فى قلبه من سماحة طبع ، ودماثة خلق ، وترك فى نفســـه اعمق الأثر .

كان يشعر شعورا قويا بتبعة التقصير ازاء « سميرة » لأنه آثر الراحـــة والتمطى فى الفراش على القيام بالواجب، والاستجابة لندائها .. وكثيرا ما هتف به ضميره : « من يدرى يا شـــاكر ، ربما كانت فى حاجة الى جـــرعة ، او حقنة ، ومن يدرى أيضا ربما كان فى الحقنة او الجـــرعة ما يدفع عنها يد الموت ؟! »

وكان لا يجد منفذا للتكفير ، وتخفيف ثقل وطأة التبعة ، الا فى اشاعة الخير بين الناس ، وتوخى المنفعة لهم ، وفى مواساة المساكين ، ثم فى العمل المتصل، والسعى الدائم .

جعل يحسن على الناس بعلمه ، كما يحسن عليهم بماله ، لا يرد داعيا . ولا يبخل على فقـــير ، ولا يعوقه عن مرضاه برد ، ولا قيظ .. لا يسرى عنه الا العمل ، العمل المتصل حتى لم تعد له اوقات فراغ ، اذ يبدو على الدوام وكأنه مطالب بعمل لا يحتمل الا رجاء .

وكان كلما امعن فى اسداء المعروف شعر بالغبطة تسرى فى كيانه ، وكلما اسرف على نفسه فأرهقهـــا بالعمل المضنى ، تنسيه راحة ضميره ، تعب بدنه فيرتمى بجمعه فى الترفيـــه عن النفوس والأبدان .

* * *

ثم دارت عجلة الزمن.. واستطارت شهرة الدكتور شاكر بين النـــاس ـــ وخاصة الفقراء فقصدوا اليه من مختلف الأنحاء يلتمسون طبه وبره .. واغتبط الجميع بهذا التغيير المفاجىء ، وكان أشدهم اغتباطا وفرحا زوجه « يسرية هانم » فقد طرأ عليها تغيير مماثل فى احتفائها به ، ولقائها له ..

كانت لا تلقاه الا كاشحة متجهمة ، وكانت تنفر على الدوام من تودده اليها، ولا تجد حرجا من التلميح بما تكن له فى قلبهـــا من بغض ، وما يجيش به صدرها من وغر .. فلما انغمر فى تيار عمله ، غمرته بحنانها وقبلاتها ، وبكل ما كانت تضن به عليه .

وهكذا فاز الدكتور شاكر براحـــة ضميره ، وتقدير الناس ، وقلب يسرية

وحبها .. ولم يكن يقدر ابدا ان « يسرية » قد فتحت له طاقة فى قلبها، لانه بعمله المتواصل ، وانشغاله الدائم قد فتح لها ما كان موصدا من الأبواب !

ومن اين له العلم بانها كانت لا تميل اليه ، ولا تعده بطل احلامها !؟ ثم من اين له انها كانت تؤثر عليه صديقه الأستاذ فوزى !؟ وانها قد وهبته حبها وقلبها .. وبدنها !!

لقد اجتمع لصديقه فوزى ما يروق فى عين امراة متقدة النفس ، تفيض حركة وطربا كيسرية هانم ، فهو عريض المنكبين ، فاره القامة ، فاحم الشعر، يضطرم فى ضلوعه الشباب والطيش واللهو ، وتضطرب فى راسه أساليب متقنة من الاغراء والاخفاء .. فهو مع شاكر نعم الصديق ، ومع يسرية نعم العشيق !!

وكانت يسرية تختلس الوقت اختلاسا لتلتقى به ، فلما انغمس زوجها فى عمله، سنحت لها الفرصة فتهافتت على ملذاتها ، ولجت فى غلوائها ، وبقدر ما ارتمى الدكتور شاكر بجمعه فى العمل ، ارتمى العاشقان فى تيار التهتك والعبث ، يعبان من نشوة اللذة الآثمة .. وكانما احست يسرية نحو زوجها بشىء من تقدير الجميل ، لاتاحته الفرصة لها ـ ولو عن طريق غير مباشر فكانت اذا التقت به ـ وما اقل ذلك ، تغمره بفيض من قبلاتها وضحكاتها ، وتتيح له من السعادة ما كان محرما عليه !!

ولكن اذا كان الدكتور شاكر قد ربح راحة ضميره ، وفاز بتقدير الناس ، وبتودد زوجه .. واذا كانت يسرية قد منيت باشباع ميلها الغريزى الى العبث والطيش فقد خسر الاثنان ابنهما فريد !!

فقد توعك الطفل اول الأمر ، ولكن اباه استهون المرض فلم يحفل به ، وضن بشىء من وقته أن يضيع فى هذا التوعك البسيط وهو لا يكاد يجد وقتا لمرضاه الذين تفتك بهم اوجع الأسقام.. ويسرية هانم كانت لا ترى الدنيا الا من جانب واحد : جانب اللهو والمجون كأنما قد اعطيت الحياة لتهبها لهذا الجانب دون غيره !! ؟

وعلى هذا النحو كان الوالد فى واد ، والأم فى آخر ، والصغير بين الاثنين موعوك مضنى ، يتزايد توعكه ، وتتفاقم علته .

وفجاة استفاق الاثنان على انين فريد وهزاله ... استفاقا فوجدا تلك الطفولة النضرة الضاحية ، وتلك البراءة السمحة الرفاقة قد استحالت الى تهدم فى البدن ، وتهضم فى الوجه ..

وبذل الدكتور ما فى وسعه ليعرف مرض ابنه ولكنه لم يوفق ، فليس ثمة علة ظاهرة فاستعان باصدقائه الأطباء فغشيهم من الحيرة ما غشيهم ، ولكنهم

اجمعوا على أمر واحد وهو ان الطفل بحاجة الى الراحة والهدوء والهواء ..

وبعد حديث قصير مع يسرية ، انتقلت بطفلها الى ضيعة الزوج فى ضواحى المدينة بعد ان زودهما شاكر بما يناسب الصغير من علاج .

وآوى الدكتور شاكر الى فراشه ذات مساء ، ولكنه لم يلبث ان هب مذعورا ، فقد عاودته رؤياه القديمة .. ففريد يستصرخ ويستغيث : « اغثنى يا أبى ، ادركنى يا ابى !! » .

وتراقص طيف الطفل فى ارجاء الحجرة ، وفى المرآة يئن ويتوجع !!

لقد جرب شاكر عاقبة الاهمال ، وعلمته التجارب أن اوهى التوانى يخفى فى طياته أفدح النتائج ، ولذلك لم يدع لحظة تفر منه ..

استقل سيارته وانطلق بها ينهب الأرض نهبا ، واقترب من الضيعة .. ودنا من منازلها القليلة فسمع الصياح والعويل !!

ها هى المأساة تتكرر !! استغاثة فى الحلم ، ثم الصياح والعويل ، فالموت..

ولكنه لم يلبث ان تحقق ان الأصوات المفجعة لم تصدر عن بيته ، وانما عن البيت المجاور ، بيت شركائه فى الضيعة .. فدار بخاطره ان يواسى جيرانه أولا ، ولكن شيئا خفيا جعل يقود قدميه نحو منزله .

فتح الباب ، وارتقى الدرج ، وفى نفسه أن يفاجىء ولده وزوجه ليتيح لهما نشوة اللقاء الطارىء .

ودلف الى حجرة الصغير فرأى الظلام الدامس ، والهدوء الشامل .

أشعل مصباحه الكهربائى واقترب..

لا شيء سوى الصغير يئن ويتوجع .. ولا شيء سوى العقاقير ومقياس الحرارة وقد علاها الغبار !

الصغير وحجرته ، وطرق علاجه ، كل هذه تنبىء عن الاهمال وتشى به.. ولكن أين يسريه !! ؟

اتجه الى الغرفة الأخرى فراى النور يشع من خلال فرجاتها .. وسمع حديثا وضحكا يصدر منها ، فتقدم على أطراف أصابعه كالشبح ، فراى .. ويا لهول ما رأى ، وسمع ويا لهول ما سمع !!

رأى يسرية وفوزى فى فراشه يتعانقان ويتضاحكان .

انجابت السحب فجأة عن مخيلته فتشوهت فى نظره صورة الزوج والصديق ولكنه تماسك ..

لقد شعر أنه فى موقف لا يجدى فيه العزل ، ولا العنف .. شعر أنه من الغبن أن يخسر ماراض نفسه عليه من هدوء وتسامح ، وأن ينفعل ويثور على من لا يستحق الانفعال والثورة ..

واشرقت بصيرته عندما طرق اذنيه ثانية أنين ولده فرجع اليه وقبله ، ثم قبله ..

وبهدوء كهدوء الماء العميق الذى تضطرب فى جوانبه الأفكار والأسرار ، وهو ساكن السطح ، بارد الأديم ، أخرج ورقة من جيبه وكتب فيها هذه الكلمات :

« لقد ارتضيت هذه القسمة ! لك العشيق والصديق .. ولى فريد » .

ثم وضع الورقة على الفراش مكان الطفل وحمله ، وقفل راجعا الى المدينة .